

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

والصلاة والسلام على رسوله الذي بعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وعلى آله وصحبه أهل الحق وحزبه، وعلى كل من اتبع ودعا إليه إلى يوم الدين ...

وبعد ...

فهذه رسالة موضوعها «الحق» ومرجعها الأول هو القرآن الكريم، وأسلوبها هو الحوار. فهي دراسة قرآنية عن مفهوم «الحق» وما تدل عليه هذه الكلمة في الكتاب العزيز، وكيف أودع الله الفطرة البشرية، حب الحق وطلبه، والتوجه إليه. وبيان الوسيلة الفذة المضمونة لمعرفة الحق والاهتداء إليه. وهي: الوحي الإلهي. وبيان الصلة بين الوحي الإلهي والعقل الإنساني، وماذا ترك الوحي للعقل من مجالات يعمل بها ويصول، وبيان المرجع السماوي الوحيد الباقي للبشر في الأرض ليعرفوا به الحق وينصروه وهو القرآن الذي ميّزه الله بالوضوح، والتأثير والشمول، والخلود. وجعله تبياناً لكل شيء. وكيف ضلّ المسلمون وذلوا حينما غفلوا عنه.

ثم بيان موقف الناس من الحق، وأسباب إعراضهم عنه، وكراهيتهم له، وعداوتهم لأهله، عن جهل وغفلة أو عن عناد وهوى. ولماذا يطلب بعض

الناس الحق ولا يهتدون إليه.

ثم ماذا على الإنسان من أعباء وواجبات نحو «الحق» إذا عرفه واهتدى إليه، وماذا ينتظره من جزاء في الدنيا والآخرة، إذا ثبت في معركة الصراع بين الحق والباطل، وأخيرًا قيمة الحضارة السائدة اليوم وكم فيها من حق وباطل.

كل هذه القضايا الهامة تناولتها هذه الرسالة الصغيرة بأسلوب قريب كل القرب، بسيط غاية البساطة، بعيد عن التعقيد والتفلسف والتكلف. هو أسلوب الحوار بين شيخ مرب وتلميذ متعلم. وهو أسلوب استعمله علماءنا من قديم كما نجد ذلك عند ابن القيم رحمه الله في محاورته بين سني وقدري، وبين قدري وجبري.

وكما رأينا ذلك حديثًا في محاورات المصلح والمقلد، للسيد رشيد رضا، ومحاورات الشيخ المرزوق وحيران بين الأضعف في «الجواب الإلهي عن العلم والفلسفة» للشيخ حسين الجسر، كما استعمله ولده الشيخ نديم الجسر في كتابه القيم «قصة الإيمان بين الدين والعلم والفلسفة». بل إن القرآن الكريم نفسه استخدم أسلوب الحوار ليبرز به قضايا الوجود الكبرى: قضايا الألوهية والرسالة والبعث والجزاء كما نشاهد ذلك واضحًا في عرضه لقصاص الرسل مع أقوامهم.

وقد أردت بهذه الرسالة القرآنية الموجزة أن أعرف الشباب المثقف بالحق، كما يهدي إليه كتابهم، وأن أحبيه إليهم، حتى يؤمنوا به وينصروه ويكونوا من جنده وحزبه. وإني لأحمد الله عز وجل أن كتبت لهذه الرسالة

القبول في قلوب المسلمين، فكتب إليّ مسلمون في إفريقيا يطلبونها، وقام
إخواننا الأتراك بترجمتها إلى اللغة التركية. والله تعالى أسأل أن يجعلها
خالصة لوجهه وأن ينفع بها كاتبها وقارئها وناشرها.

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه،
أمين.

د. يوسف القرضاوي

* * *

الناس والحق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ:

لطالما حدثتنا عن «الحق». وحببت إلينا العيش من أجله، كما هونت علينا الموت في سبيله، ولكنك علمتنا أن تحدد «مفاهيم» الكلمات وما تدل عليه أمر يجب أن يسبق لك حركة وكل عمل، حتى يتضح لنا الهدف، ولا يلتبس علينا الطريق، فما المفهوم المحدد لكلمة «الحق»؟

قال الأستاذ المربي - وقد أعجب بحديث تلميذه:

أحسنّت يا بني فيما طلبت.

إن كلمة «الحق» قليلة الحروف، ولكنها كبيرة المعنى! وقد استعملها ذوو الاختصاصات المتنوعة استعمالات شتى:

استعملها رجال الفلسفة دالة على إحدى القيم العليا الثلاث: الحق، والخير، والجمال.

واستعملها علماء الأخلاق فيما للإنسان على غيره، وهو ما يقابل الواجب، ولهذا قالوا: كل حق يقابله واجب.

واستعملها علماء القانون في معنى آخر، يشمل الحق العيني، والحق الشخصي، حتى إن دراسة القانون بكل فروعه لتسمى دراسة «الحقوق».

واستعمل القرآن الكريم كلمة «الحق» فيما يقابل الباطل والضلال، قال تعالى: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} [يونس: 32].

قال الطالب:

أحسب أن المفهوم الأخير للحق هو الذي يعيننا أن نعرفه هنا، وهو الذي يحرص كل امرئ على الانتساب إليه، ولو لم يكن من أهله ويبرأ من مقابله - وهو الباطل - ولو كان في الواقع من أنصاره وحزبه.

قال الأستاذ:

وهذا ما يزيد الأمر تعقيداً، فإن سائر أهل الباطل يزعمون أنهم على الحق، بعضهم عن جهل وغفلة، وبعضهم عن عناد ولؤم: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} [البقرة: 11]. ولكني أضع في يديك مصباحاً يضيء لك معنى الحق.

الحق يا بني - كما تهدي إليه الفطرة السليمة - هو الأمر الثابت الباقي، والباطل هو الزائل المتغير. فما كان من شأنه الثبات والبقاء فهو «حق»، وما كان من صفته التلاشي والفناء فهو «الباطل».

وإذا نظرنا إلى الواقع لم نر في الموجودات شيئاً يتصف بالثبات والبقاء لذاته غير الخالق سبحانه. وكل من عداه وما عداه، فليس وجوده لذاته، ولا بقاؤه بنفسه، وإنما هو موجود لغيره، وكائن بعد أن لم يكن، وكائن إلى أجل، ثم تطوى صفحته!!

فالحقيقة الناصعة التي تشهد بها الفطر والعقول، ويشهد لها كل سطر، بل كل حرف في كتاب الوجود: إن الله هو الحق، وما دونه هو الباطل. وهذا ما أعلن عنه كتاب الله الحق في غير سورة من سوره، فقال: {فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ أَحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس: 32]، {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ

أَلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {الحج: 6}، {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} {الحج: 62}.

ومن هنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أصدق كلمة قالها شاعر،
كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»⁽¹⁾.

وَمَن ضلَّ عن هذه الحقيقة، فسوف يعرفها غداً، يوم ينكشف الغطاء عن
بصره، فيرى الحقائق عارية مجردة من الأتعة الزائفة، والألبسة المموهة:
{يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} {النور: 25} ...
{وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَفْتَرُونَ} {القصص: 75}.

إن حيثيات هذا الحكم تتلخص في هذه الآية الكريمة: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا
وَجْهَةً لَّهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {القصص: 88}.

قال الطالب لأستاذه:

لقد أنرت لي السبيل بهذا المصباح، وإن صوت الفطرة في أعماقي
لينادييني بأن الله هو الحق المبين. ولكني أسألك سؤالاً ...

قال الأستاذ:

سل ما بدا لك، فالعلم خزائن مفاتيحها السؤال.

قال الفتى:

ألسنا نصف أقوالاً وأعمالاً، وأفكاراً ومذاهباً وأشياء بأنها الحق، وبأن

(1) وتمام البيت في ديوانه (ص 256): «وكل نعيم لا محالة زائل».

غيرها باطل؟ فمن أين يجيء البطلان لهذه، والحقية لتلك؟

قال الشيخ:

إن الأمر يا بني يكتسب صفة الحق بقدر اتصاله بالحق المطلق - الله - وانتسابه إليه، ورضاه عنه، ويكتسب الأمر صفة الباطل بقدر بُعده عن الله وانقطاعه عنه، وإفقاره من رضاه.

فما كان أصله من قبَل الله فهو حق، وما كان من غير الله فهو باطل.

فإذا عرفت أن الله هو الحق، فاعلم أن قوله «حق»، وفعله «حق»، فهو تعالى لا يقول باطلاً، ولا يفعل باطلاً.

ولهذا كان من دعاء أولي الألباب: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: 191].

ومن هنا رد القرآن في إنكار وتعجب على أولئك الذين زعموا أن هذا الخلق ليس له حكمة، وهذه الحياة ليس وراءها غاية، بأن هذا عبث ينتزعه عنه فعل الله الحكيم، وباطل يتعالى عنه الملك الحق: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ 115 فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ} [المؤمنون: 115، 116]، {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ 38 مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الدخان: 38، 39]، {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [ص: 27].

فما أخبر به تعالى في كتبه على السنة رسله فهو «حق»، وما شرعه تعالى في كتبه وعلى السنة رسله فهو «حق»: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}

[الأنعام: 115].

فكل ما أخبر الله به عن عوالم الغيب ونهاية الحياة وحقائق الآخرة فهو «حق»، يجب التصديق به، والتسليم بصحته ووقوعه لا محالة.

ومن هنا كان وعد الله حقًا، وكان الموت حقًا، وقيام الساعة حقًا، والبعث حقًا، والحساب حقًا، والجنة حقًا، والنار حقًا، فالقرآن يقول: {وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} [الكهف: 98]، {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} [لقمان: 33]، {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق: 9]، {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُّ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [يونس: 53]، {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ 17 يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} [الشورى: 17]، [18]، {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا} [الأحقاف: 34]، {وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 28 هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ} [الجاثية: 28، 29].

هذا وكل ما شرعه الله لعباده من أحكام تنظم علاقتهم بالله، أو علاقتهم بالكون والحياة، أو علاقتهم بعضهم ببعض أفرادًا وأسرًا، وجماعات، فهو «حق»، يجب الاحتكام إليه، والإذعان له، والتسليم بعدالته، كما قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} [النساء: 105]، {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ} [المائدة: 48].

قال الطالب:

إذا كان «الحق» من الوضوح والبساطة بالقدر الذي ذكرت، فما بال الناس

يختلفون اختلافاً كثيراً في تحديد الطريق إلى الحق، وتحديد المعيار الذي يزنون به «الحق» في الأمور من الباطل؟

قال الأستاذ الشيخ:

إن الله - يا بني - أودع الفطرة البشرية حب الحق وطلبه والتوجه إليه، كما أودع العقول بذور معرفته، ثم كمل كله بالكتب والرسالات السماوية، لنأخذ بيد العقل فلا ينخدع ولا يضل، ونحجب الأذى عن الفطرة فلا تنطمس ولا تتحرف، وبذلك يجتمع الناس على كلمة سواء، ويهتدون إلى المحجة البيضاء.

اقرأ معي قول القرآن: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ} [البقرة: 213].

وأظنك يا بني، تسلم معي أن من أراد أن يعرف الأفكار مؤلف أو مبادئ مفكر أو تعاليم مصلح، فليطلبها مما ألفه من كتب وما أذاعه من أحاديث ... ونحن نقول هنا أيضاً: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [النحل: 60] من أراد أن يعرف الحق على وجهه الصحيح، مجرداً من شطط البشر، فليعرفه من كتب الله تعالى ورسله.

ولست أنكر دور الفطرة البشرية السليمة ولا دور العقل البشري الراشد، في معرفة الحق والاهتداء إليه. كلا ... فإنهما نعمتان أنعم الله بهما على الإنسان لينتفع بهما لا ليعطلهما. وهل الفطرة السوية أو العقل السديد إلا ذلك الميزان المعنوي الذي نزن به الأفكار والمعاني، كما نزن الماديات والأجسام

بالقبان؟ ذلك الميزان الذي وهبه الله لأفراد الإنسان كما وهب الكتاب المعصوم للجماعة الإنسانية: {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ} [الشورى: 17]، {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: 25].

هذا الميزان لا بد منه بجوار الكتاب، لأن الإنسان به يعرف حقية الكتاب وصحة النبوة، وصدق الرسول. بل بهذا الميزان - ميزان الفطرة والعقل - يعرف ربه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. لا غنى عن هذا الميزان، ولكن لا قيمة له أيضاً بغير الاهتداء بنور الكتاب، ولا يستغني عنه إلا إذا استغنى المخلوق عن الخالق، وهو ما لا يكون.

قال الطالب:

أمنت بما تقول يا أستاذي، ولكن - ليطمئن قلبي - أوجه إليك سؤالاً آخر زيادة في الاستيضاح: ما دمنا خلقاً نمشي على الأرض، فلماذا نطلب الحق من السماء؟! ألا يُعَدُّ ذلك حَجْرًا علينا؟! ولماذا لا نضع نحن مقاييس الحق لأنفسنا؟

قال الأستاذ:

ليس غريباً ولا بعيداً - أيها التلميذ النجيب - أن تطلب معرفة الحق من الله. بل هذا هو المنطقي والطبيعي.

إذا كان الحق هو معرفة حقائق الأشياء، وأسرار الوجود وغايات الحياة، فالمنطقي أن نطلبها من خالق الأشياء ومدبر الوجود، وواهب الحياة.

وإذا كان الحق هو دستور العدالة الذي يفصل بين الناس ويوزع الحقوق والواجبات بالقسطاس، فيعطي كل فرد، أو كل أسرة، أو جماعة، ما له، ويطالبه بما عليه، فليس مصدر هذا الحق إلا رب الناس، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والذي يعلم ما يحتاج إليه عباده وما يصلحهم أو يفسدهم، وهم جميعاً لديه سواء، هو ربهم، وهم عباده، فلا يتحيز لفرد ولا للأسرة، ولا لطبقة ولا لأمة ولا لجنس ولا لأهل إقليم من الأقاليم أو عصر من الأعصار.

وإذا كان الحق هو قانون الفضيلة التي تحكم الغرائز، وتضبط السلوك، وتسمو بالنفس، وتهذب الفطرة، وترقى بأخلاق الفرد والمجتمع، فالحق في هذا يُعرف من خالق النفس وفاطر الفطرة، العالم بما يزيكها وما يدسيها: **{وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}** [البقرة: 220]، **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}** [الملك: 14].

إن أدرى الناس بإصلاح جهاز ما، هو صانعه ومنشئه، والله جلّ شأنه هو صانع الإنسان، فلماذا يُطلب صلاح الإنسان من عند غير الله رب الإنسان؟! **{رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الجاثية: 36].

وفضلاً عن علمه تعالى بمن خلق، فهو أرحم بعباده من آبائهم وأمهاتهم، بل أبر بهم من أنفسهم: **{إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ}** [الطور: 28]، **{إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ}** [البقرة: 143، الحج: 65].

قال الفتى:

ولكن ماذا ترك الكتاب للميزان؟ وبعبارة أخرى ماذا ترك الوحي للعقل؟!

قال الأستاذ الشيخ:

لقد ترك الوحي للعقل أمورًا كثيرة في مجالات متعددة:

أ- ترك للعقل في مجال العقيدة أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود:

الحقيقة الأولى: وجود الله ووحديته - فوجود الله - كما تهدي إليه الفطرة السليمة - يقتضيه كذلك النظر الصحيح، والعقل الصحيح، ولا غرو إذا أقام القرآن الأدلة من الكون ومن النفس على وجود الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} [آل عمران: 190].

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخُلُقُونَ} 35 أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ} [الطور: 35، 36].

ويتبع ذلك الأدلة العقلية التي ذكرها القرآن على وحدانية الله بقوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} 22 لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} 23 أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ} [الأنبياء: 22 - 24].

وفي موضع آخر يقول: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [المؤمنون: 91].

الحقيقة الثانية: ثبوت الوحي والنبوة والرسالة. فالعقل هو الذي يثبت إمكان ذلك ووقوعه بالفعل، وأن هذا الشخص المعين رسول من عند الله. العقل هو الحكم الأول والأخير في هذه القضية، ولا مدخل هنا للاستدلال بالنقل ونصوص الوحي: إذ كيف يستدل بما لم يثبت بعد؟ ولهذا قال علماء الإسلام:

إن العقل أساس النقل، ذلك أن العقل - بعد اقتناعه بوجوده تعالى وكماله سبحانه - يعلم أن من تمام حكمة الحكيم ورحمة الرحيم ألا يترك عباده سدى، وألا يدعهم في بحر لحي من الجهالة والعمى والغى، وهو قادر على أن يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور عن طريق تبليغه عنه.

والعقل بعد أن يعلم ذلك - لا يسلم لكل من ادعى أنه رسول من الله، بل يطالبه بما يثبت صحة دعواه وأنه لا يمثل نفسه، وإنما يمثل إرادة الله الذي أرسله، يطالبه بالآية المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى.

والعقل هو الذي يميز بين الآيات المعجزة الحقيقية التي لا تظهر إلا على أيدي رسل الله حقًا وبين مظاهر الخفة والشعوذة التي تظهر على أيدي السحرة والدجالين.

والعقل هو الذي يعرف وجه دلالة المعجزة الخارقة على صدق من أظهرها الله على يديه، وأنها تصديق من الله له في دعواه، فهي بمثابة قوله: «صدق عبدي فيما يبليغ عني». والله تعالى لا يصدق الكاذب، لأن تصديق الكاذب كذب - والكذب محال على الله تعالى. كل هذه مقدمات عقلية محض ولولاها ما ثبت الوحي أصلاً، ولا قام الدين رأساً.

والعقل ينظر في سيرة كل شخص يدعي الرسالة ويتأمل في صفاته وأخلاقه، وأقواله وأعماله، ومدخله ومخرجه، ليعرف منها: هل هو أهل لاصطفاء الله أم ليس كذلك فيرفضه ويعرض عنه، ومن أجل ذلك احتكم القرآن في إثبات صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى العقول المنكرة وحدها، فقال في صرامة ووضوح: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَنَّاسٍ﴾**

وَفُرْدَىٰ ثُمَّ تَنَفَّكِرُوا مَّا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ {
[سبأ: 46].

وقال يخاطب الرسول: {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ⁽²⁾ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَفَدَّ
لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [يونس: 16].

ب- وترك للعقل في مجال التشريع أو يجول ويصول في فهم النصوص،
فيفرّع على الأصول، ويقيس على الفروع، ويستنبط الأحكام، ويكيّف
الوقائع، ويرعى القواعد في جلب المصالح،
ودرء المفساد ورفع الحرَج، وتحقيق اليُسْر وتقدير الضرورات بقدرها،
واعتبار العُرْف، ورعاية ظروف الزمان والمكان.

ولا عجب بعد أن اختلفت المشارب، وتعددت المذاهب، وتنوعت الأقوال،
وخلف لنا العقل الإسلامي في ضوء الوحي، ثروة فقهية طائلة، لها مكانها
الرفيع في تراث الفقه العالمي.

ج- وترك للعقل في ميدان الأخلاق أن يصدر حكمه وفتواه في كثير من
الأعمال، التي يلتبس فيها الخير بالشر، ويشتبه الحلال بالحرّام، ولم يغفل
شأنه - بجانب الوحي - كمصدر للإلزام الأدبي، ومقياس للحكم الخُلقي.

ولا أجد من وضّح هذه النقطة مثل أستاذنا العلامة الشيخ الدكتور محمد
عبد الله دراز في رسالته القيمة «كلمات في مبادئ علم الأخلاق» قال:

«يفخر الحكماء بأنهم اكتشفوا للإلزام الأدبي مصدرًا آخر، غير الوحي
السماوي، ذلك هو النور العقلي، أو الإحساس الأخلاقي، الذي ينطوي عليه

(2) أي القرآن.

كل قلب إنساني. ألا فليعلموا أنهم لم يأتوا بجديد غريب عن الإسلام. فالقانون الإسلامي في رجوعه إلى العقل السليم والوجدان النبيل، يرجع إليهما لا باعتبار أنهما شهيدان له فحسب، يؤيدان حكمه ويشفعان له عند المخاطبين كما بيّنا آنفاً، بل إنه يقلدهما مقاليد الحكم، ويخولهما حق الأمر والنهي في أطوار ثلاثة: قبل ورود الشرع، وفي أثناء نزول الشرع، وبعد انتهائه وتمامه.

أما قبل الشرع فإن القرآن يقرر في أصرح عبارة أن النفوس كلها قد منحت بفطرتها قوة التمييز بين الخير والشر، والعدل والظلم، والتقوى والفجور: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا 7 فَأَلَّهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس: 7، 8]، {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ 14 وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ} [القيامة: 14، 15]. ثم لا يكتفي بأن يجعل هذه البصيرة قوة كاشفة معرّفة، بل يجعلها أمره ناهية، وينعى على من يخالفها بأنه من أهل الضلال والطغيان: {أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الطور: 32] هذه القضية المنفصلة لا تدع مجالاً للشك في وجوب الخضوع لأوامر الأحلام والعقول، ومتى اتضح أمامها طريق الحق والخير. وكذلك يقول صاحب الرسالة الباهرة صلوات الله عليه: «إذا أراد الله بعبده خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه».

إن الإسلام يقرر للعقل سلطاناً أدبياً بالمعنى الإنساني الذي شرحناه آنفاً. وهو المعنى الذي زعم علماء أوروبا أنهم اكتشفوه في المذاهب الفلسفية خاصة. هذا السلطان الأدبي الذي يسميه الفلاسفة «سلطان الضمير» يعترف الإسلام به على استقلاله وكماله في الفترة التي تسبق قيام الشريعة ووصولها إلى من وجهت إليه.

يبقى البحث في نظرة الإسلام إلى هذا السلطان العقلي، في أثناء نزول الشريعة السماوية وبعد تمامها: هل متى نزلت الشريعة وبلغت أهلها أصبح أمرها ناسخاً لأحكام العقل وأوامره، كما يبطل التيمم بحضور الماء؟

كلا! إن النور لا ينسخ النور، ولكنه:

إما: أن يؤكده ويؤيده.

وإما: أن يغذيه ويرفده.

وإما: أن يكمله ويزيده.

وتفصل ذلك أن شئون الإنسان على ثلاثة أضرب:

منها: ما للعقل فيه مجال واضح، وحكم حاسم. وهو الأصول التي لا تتعارض فيها الأنظار ولا يختلف فيها اثنان، كحسن الصدق النافع، وقبح الكذب الضار، ونبل الإحسان في ردِّ الإساءة، ولوِّم الإساءة في جراء الإحسان ... فيجئُ الشرع في هذه المواضع مقررًا لحكم الفطرة ومؤكداً.

ومنها: ما للعقل فيه نور ضئيل تغشاه الظلال، وتخالطه الأوهام وهو مواضع الشبهات العقلية كالخمر والربا والصدق الضار والكذب النافع واستبقاء الحياة المعذبة مع اليأس، والتضحية بها في سبيل الواجب مع القدرة على حفظها ... فمنها يجئُ الشرع إمداداً لنور العقل، بترجيح جانب الحكمة والرشد فيه، وتصحيح أخطاء الوهم التي تخالطه وتغشاه.

ومنها: ما لا مدخل للعقول فيه بإطلاق، كتفصيل أنواع العبادات وكيفية مقاديرها ... فيكون ورود الوحي بها مكماً لما فات العقل إدراكه، ماحياً

للظلمة التي تركها وراء حدوده. وهكذا يكون للفطريين الذين لا يتبعون إلا شريعة العقل، نور واحد، ويكون لأتباع الشرائع السماوية نوران اثنان، كما قال سبحانه: {نُورٌ عَلَى نُورٍ} [النور: 35].

ولا تحسبن أن نور الشريعة فيما لم يهتد إليه العقل بمفرده قد أصبح مستغنياً عن نور الفطرة جملة، كلا، فإنه لا يزال في أشد الحاجة إلى رفته وعضده، من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الشرع لا يزال يستند إليه عند مطالبته للمؤمنين بأداء واجباتهم الشرعية، لا باعتبار أنها أوامر إلهية فحسب، بل باعتبار أنها أصبحت أوامر أخلاقية بعد أن سبق تعهدهم بها تعهداً كلياً عامّاً، بمقتضى عقد الإيمان الذي ينطوي على التزام السمع والطاعة. ألا ترى إلى قوله سبحانه: {وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [المائدة: 7]، وقوله: {وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الحديد: 8].

الوجه الثاني: أن أوامر الشريعة في معظم شأنها أوامر عامة كلية، يكل الشرع تفصيلها وتحديدها إلى تقدير الوجدان الخلقى، الذي أودعه الله في كل نفس، وفي كل جماعة بشرية وكثيراً ما يصرّح القرآن بتفويض هذا الوجدان الشخصي أو الجماعي في تحديد مقادير الحقوق والواجبات وأساليبها: {مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ} [البقرة: 282]، {رَزَقْنَهُنَّ وَكَسَوْتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: 233]، {مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: 236].

الوجه الثالث - وهو أعم وأدق - : أن الإسلام لا يطلب، ولا يرضى، أن تنفذ أوامره تنفيذاً آلياً، خضوعاً لصولة حكمه، بل لا بد قبل كل شيء أن

تسري أوامره إلى أعماق الضمير، حتى يتشربها القلب، ثم تفيض عنه بعد أن تكون قد تحولت فيه إلى أوامر ذاتية انبعاثية ... ذلك أن أول خطوة في امتثال الواجب هي الإيمان بوجوبه وعدالته، والخطوة التي تليها هي أن يُحمل هذا الإلزام إلى النفس على كف الضمير، مشفوعاً بصوت منبعث من أعماقه، يناديها: «أيتها النفس ... إن الله يأمرك أن تفعلي، وأنا أمرك أن تطيعي أمره، فإنه حق وعدل، وإنه لا خيرة لك في رده». فإن لم ينبعث من الأعماق هذا التبليغ، ولم يرتفع فيها هذا الصوت السماوي، كان العمل كله هباءً عند الله، وفي نظر قانون الأخلاق.

القلب - أو الضمير - إذاً هو يريد الشرع، الذي لا سبيل إلى الامتثال إلا عن طريقه. وكفى بهذا رفعاً لمكانته في غضون أحكام الشريعة.

وبعد ... فإن الشريعة نفسها، بعد أن بيّنت الحلال الصريح، والحرام الصريح، تركت المنطقة التي تختلط فيها الأوصاف، ويشتبها فيها الحكم وفوّضت لكل امرئ أن يستفتي فيها قلبه، ويتحرى فيها طمأنينة نفسه، أخذاً بالأحوط والأسلم. هكذا قضى الرسول الحكيم حيث يقول: «الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه».

ويقول: «استفت قلبك واستفت نفسك. البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

وأخيراً ... فإن سلطان الضمير في نفس الإسلام لا يقف عند هذا الحد، ولا

ينتهي بانتهاء هذه الحياة، بل إن له دورًا هامًا عند المحاسبة في دار الجزاء، حيث يتقدم بين يدي فصل القضاء، ويصدر حكمه على صاحبه قبل أن يصدر عليه الحكم الأعلى. اقرأ إن شئت قوله تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا 13 أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: 13، 14].

د- ثم ترك الوحي للعقل بعد ذلك أن يجول في آفاق هذا لكون العريض ما شاء، صاعدًا إلى الأفلاك وهابطًا إلى الأرض. ومتأملًا في النفس: {قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس: 101]، {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ 20 وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: 20، 21].

ترك له أن يكتشف من ظواهر هذا الكون ما استطاع، وأن يسجّر من قواه ما قدر عليه، فكل ما فيه سخره الله لمنفعته: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الجاثية: 13].

{وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ 32 وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَانِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ 33 وَعَاتَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} [إبراهيم: 32 - 34].

هـ- ترك له أن يبتكر ويخترع في وسائل الحياة وأمور الدنيا ما شاء، ما دام ملتزمًا حدود الحق والعدل: «أنتم أعلم بشئون دنياكم». {وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [القصص: 77].

و- ترك للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين، وينتفع بتراث السابقين، ومعارف اللاحقين: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ} [الحشر: 2].

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46].

{أَنْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّن عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأحقاف: 4].

{فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 43، والأنبياء: 7]. «اطلب العلم ولو بالصين»، «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها».

قال الطالب:

ما أجمل وأروع ما قلت يا أستاذ، ولكن في نفسي شيئاً لم يزل يحييك فيها ... ألم يكرم الله الإنسان بالعقل؟ فلماذا لم يدع له المجال ليبحث عن الحق، ويهتدي إليه بنفسه؟

قال الأستاذ - وكأنه غضب لهذا السؤال:

لقد عدت إلى سؤالك القديم من جديد في صيغة أخرى.

بلى ... إنه تعالى كرم الإنسان بالعقل، وفرض عليه أن ينظر ويتفكر في نفسه، وفي السموات والأرض من حوله. كيف لا، وكتابه الكريم يقول: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: 21]، {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكُوتِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ} [الأعراف: 185]، {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى} [الروم: 8]، {قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَحْدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ وَفُرْدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ} [سبأ: 46].

وهو الذي يختم كثيراً من آياته بمثل هذه الفواصل: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة:

44]، {أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام: 50]، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الرعد: 3]،

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [النحل: 12]، {لَا يَأْتِي لَأُولِي الْأَلْبَابِ} [آل عمران: 190]، {لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} [آل عمران: 13]، {لَا يَأْتِي لَأُولِي النَّهْيِ} [طه: 54].

ولكن الحق سبحانه - بحكمته ورحمته - لم يدع عقل الإنسان وحده، فيما يصعب عليه أن يعرفه أو يحسم فيه برأي قاطع وقول جامع.

إن الحق المطلق يا بني، لا يمكن معرفته عن طريق العقل وحده بمعزل عن هداية الله، لأن العقل محدود بحدود زمانه وبيئته ومدى ذكائه، ومبلغ ثقافته.

كما أن عقول الناس تختلف باختلاف الأعصار والأمصار. وكم من أمر يُعد فضيلة لدى أمة هو من أرذل الرذائل لدى غيرها. وكم أمر يعده عصر من الأعصار حقاً صراحاً، يجيء عصر فيعتبره باطلاً صرفاً.

بل إن عقل الشخص الواحد ليختلف باختلاف أطوار عمره وتغير تجاربه، وتقلب الأحوال الطارئة عليه.

هناك بعد ذلك كله الأهواء والميول والنزعات الشخصية والأسرية والإقليمية والقومية، التي تغلب على عقل الإنسان، واعياً حياً، وغير واع أحياناً، وتؤثر في حكمه على الأشياء والأشخاص والأعمال والقيم، شاء أم أبى.

فأين العقل الإنساني الذي يعرف منه الحق المجرد؟ عقل أي فرد أو أي جماعة؟ وفي أي بلد أو أي عصر؟! {وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} [المؤمنون: 71].

لنضرب مثلاً بفلسفة الأخلاق، وما اتخذوا من مقياس لفلسفتهم الخلقية،

كيف اختلفوا وتناقضوا؟

فمنهم مَنْ جعل مقياسه اللذة.

ومنهم مَنْ ذهب إلى المنفعة.

ومنهم مَنْ آمن بالواجب.

ومنهم مَنْ اتجه إلى القوة.

ومنهم مَنْ غالى في العقل.

ومنهم مَنْ تطرف في العاطفة.

ومنهم مَنْ آمن بالمادة وحدها.

ومنهم مَنْ كفر إلا بالروح.

ومنهم مَنْ قدّس حرية الفرد.

ومنهم مَنْ قدّس مصلحة المجتمع.

ومنهم مَنْ اهتم بالواقع.

ومنهم مَنْ جنح إلى المثالية.

فهل يمكن أن يخرج الإنسان من أمواج هذه الفلسفات المتعارضة، وعباب هذه المذاهب المتناقضة، إلا بالشك والبلبلة والحيرة التي وصفها أحد المتفلسفين قديماً فقال وأحسن:

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلها وسرّحت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كفاً حائرٍ على ذقنٍ ... أو قارعاً سنّ نادم

إن العقل وحده إذن لا يكفي في هداية الإنسان إلى الحق، فلا بد له من معين يأخذ بيده، ويخرجه من المتاهات، وهذه مهمة النبوة. ومن هنا كانت رسالات الله وكتبه تنرى وتتلاحق لهداية البشر: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [الرعد: 7]، {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: 24]. قد يكفي العقل في الاهتداء إلى الفروع والتطبيقات والوسائل. أما الوصول والمبادئ والغايات، فلا بد فيها من كلمة السماء، تؤخذ من كتب السماء.

ولا تنس أن العقل هنا هو الذي يفهم وحي الله وكتبه، ويراقب تنفيذها، والاستقامة عليها، أو الانحراف عنها، فدوره هنا لا يُنكر.

ولكن المصدر الذي يؤخذ منه الحق بأمان واطمئنان لا بد أن يكون سماويًا إلهيًا.

قال الطالب:

سَلَّمْتُ بما تقول في الأمور النظرية والعقائدية، ولكن هناك أمور عملية تتعلق بحياة البشر، وعلاقاتهم بعضهم ببعض، وفي استطاعتهم أن يعرفوا وجه الحق والسداد فيها بمحاولاتهم وتجاربهم البشرية، فلماذا قَيَّدَهم الوحي الإلهي بنصوص تشريعية تُفرض عليهم من فوقهم، ولا تنبعث من داخلهم؟

قال الأستاذ:

نعم، هناك أمور عملية قد يعتدي الإنسان فيها إلى الحق بالمحاولة والتجربة التي تكشف له أخطائه، وتميط اللثام عن جوانب كانت خافية عليه، غشاها الجهل أو الغفلة أو الهوى. ولكن الإنسانية - حتى تصل إلى هذه النتيجة - تكون قد ضحَّت بأجيال لا حصر لها، تهلك وتذهب ضحية لمن يأتي

بعدها، ولا تكسب هي شيئاً. أفليس الأوفق بحكمة العليم الحكيم، ورحمة الرحمن الرحيم، الذي أحاط بكل شيء علماً، والذي يعلم المفسد من المصلح، أن يريح عبادة من عناء التجربة في أهم أمور حياتهم، بما ينظم علاقاتهم، ويحفظ عليهم دينهم وديناهم، ويصون دماءهم وأعراضهم وأمورهم وعقولهم وأخلاقهم؟ ألسنا نرى أن من واجب الأب الذي صقلته التجربة، وعلمته الحياة، وأدبه الليل والنهار، أن يعطي أبناءه خلاصة تجربته، وثمره معرفته بالحياة والأحياء؟ أو ليس الله - جلَّ شأنه - أبر بالناس من آبائهم، بل من أنفسهم؟ فلماذا ننكر عليه سبحانه أن يُعَلِّم عباده ما لم يكونوا يعلمونه إلا بعد تجارب مريرة ينفقون فيها الغالي الكثير في قرون يعلم الله كم يكون عددها وماذا تكون نتيجتها، على أن الإنسان قد يهتدي بالتجربة إلى معرفة الحق في أمر ما، كأن يعرف بالتجربة مثلاً أضرار التعامل بالربا، أو شرب الخمر، أو لعب الميسر، أو إطلاق العنان للغريزة الجنسية، أو حرمان الإناث من الميراث، أو اتخاذ الأدياء أبناء «نظام التبني» أو تفضيل صاحب البشرة البيضاء على صاحب البشرة السوداء أو السمراء «التمييز العنصري» ... إلخ. ومع ذلك قد لا يجد الإنسان الشجاعة الكافية التي تلزمه باتباع الحق في هذه القضايا بنصوص تشريعية ملزمة، يتقيد المجتمع بها ولا يتعدى حدودها. وتقوم عقبات شتى دون ذلك، كأن تكون السلطة التشريعية في أيدي طبقات يهتمها مثلاً بقاء الربا أو الخمر أو الميسر إلخ، لأنها تكسب وتنتفع مباشرة من جراء ذلك، أو لأنها تتملق من ينتفعون بذلك، أو لأنها تسارع في أهواء الجماهير الغافلة وتسترضيها ولو بما يضرها ويدمرها. فهي مع هذه الجماهير كالتاجر مع عملائه، همه أن يجلب لهم كل ما يشتهون ما دام يدر

عليه ربحًا. دون النظر إلى مضرته عليهم أو عدمها. لا كالطبيب الناصح الذي يمنع مريضه من أحب الأشياء إليه إذا كان فيه ما يؤذيه ... أو يؤخر عليه حلول العافية.

وهناك مثلان واضحا يدلان على ما نقول:

أما أولهما ... فإن الولايات المتحدة الأمريكية قد اقتتعت أهل الحل والعقد فيها في مرحلة من تاريخها الحديث بمساوئ الخمر وما تجلبه من كوارث وأضرار مادية وأدبية بالأمة، فقرروا تحريمها بقانون، وصدر القانون فعلاً، وأنفقت عشرات الملايين من الدولارات في الدعاية لقانون التحريم، ولكن أهواء المدمنين، ومصالح المنتفعين بإباحة الخمر من زُرَّاع وصُنَّاع و تُجَّار، غلبت على حكمة العقلاء الذين نادوا بالتحريم وكان الإفلاس والفشل، وإلغاء قانون التحريم، لا اقتناعاً بفائدة أم الخبائث، بل عجزاً واستخذاءً أمام الرغبات الجامحة والأهواء المضلة عن سواء السبيل.

وأما المثل الثاني ... ففي روسيا، وذلك أن النظرية الشيوعية تحرّم «الربا» والتعامل به. ومع هذا فشلت روسيا الشيوعية في احترام هذا المبدأ والتزامه. وأباحت لرعاياها في الداخل إيداع الأموال بالربا. كما أباحت - بالنسبة للعلاقات الخارجية - إقراض الآخرين بالربا.

إنّ الضعف الإنساني كثيراً ما يحول بين الإنسان وبين انتفاعه بتجاربه، لهذا كان في حاجة إلى سلطة عليا تلزمه بما يعجز هو عن إلزام نفسه به. ولن تكون هذه السلطة إلا سلطة رب الناس، ملك الناس، إله الناس. لهذا كان لا بد من الرجوع إلى كلمة السماء ورسالة السماء. ولا يُترك العقل وحده في هذا

الميدان.

قال الطالب:

جزاك الله خيرًا ... لقد اطمأن قلبي ... وازددت إيمانًا مع إيماني! ولكنني سمعتك تتحدث كثيرًا عن كتب الله ورسالات السماء، فهل أفهم من ذلك أن كل هذه الرسالات سواء؟! وأنا نستطيع أن نأخذ الحق من أسفار العهد القديم «التوراة وملحقاتها» وأسفار العهد الجديد «الإنجيل الأربعة» كما نأخذه من القرآن؟! قال الأستاذ:

قال الأستاذ:

إن رسالات الله واحدة في أصولها، فكلها يدعو إلى توحيد الله، وتركيبه النفس، وإقامة العدل، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ} [النحل: 36]، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَآعْبُدُونِ} [الأنبياء: 25]، {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكُتُبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: 25].

ومن هنا قال تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: 13].

وقد أثنى القرآن على كتب الله جميعًا، وجعل الإيمان بها جزءًا من إيمان المسلم: {عَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [البقرة: 285].

وقال تعالى في شأن التوراة: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} [المائدة:

[44]، {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: 154].

وقال في شأن الإنجيل: {وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [المائدة: 46].

غير أن هذا الكتاب لما كانت منزلة لفترة خاصة من الزمن. ولمجموعة خاصة من البشر، وليبينة محددة من الأرض، لم يضمن الله البقاء والحفظ لها، كما ضمن ذلك للقرآن: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9].

فلا عجب إن هبَّت عليها عواصف التحريف أو النسيان أو الضياع ... حتى أصبحنا نقرأ عن أنبياء الله ورسله في تلك الأسفار أنهم ارتكبوا الموبقات، وزنوا وشربوا الخمر، بل نقرأ عن الله تعالى شأنه فلا نجده إلا إلهًا يصارعه الإنسان، فيُصرع، إلهًا يُصلب ابنه على مرأى منه ولا يصنع شيئًا، أو هو - كما قال أحد الغربيين - إله انهزم أمام خبث الإنسان!!!

بل إننا نبحت عن الإنجيل الذي أنزله الله على المسيح عيسى فلا نعثر عليه، وإنما نجد سيرًا كتبها بعده تلاميذه، أو تلاميذ تلاميذه، متضمنة بعض أقواله، ومع هذا فهناك حلقات مفقودة في أسانيد وصولها إلى الناس بعد تأليفها، بحيث لا يُعرف أصلها العبري، ولا من ترجمها ولا كيف ترجمها!! ومع أن الأناجيل الأربعة المعترف بها الآن لدى المسيحيين انتخبت من بين عشرات الأناجيل الأخرى التي رفضت الكنيسة أن تعترف بها، والتي لا يزال في بعضها البشارة الصريحة بالرسول محمد كما في إنجيل «برنابا» - أقول مع ذلك كله فلم يزل في الأناجيل الرسمية الكثير من التعارض

والاختلاف والخلل والاضطراب.

لا أجد أن في هذه الكتب بقايا من الحق، بيد أنه مشوب بكثير من الباطل الذي يطمس معالمه، ويضيع النفع والاهتداء به.

قال الفتى معجباً: فما المرجع المضمون إذا لمعرفة الحق والاهتداء به؟!
قال الأستاذ:

ليس يا بني في الوجود كله إلا مرجع سماوي واحد مضمون مائة في المائة، ذلك هو القرآن الكريم. إنه: {كُتِبَ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: 1].

إنه الكتاب الذي تحدى البشر أن يأتوا بمثله أو بعشر سور منه أو بسورة مثله، فغلبوا وانقطعوا وحققت عليهم كلمة الله: {قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: 88].

إنه الكتاب الذي سلم من التحريف والتبديل والنسيان، لم يزل منذ أنزله الله محفوظاً في الصدور متلوّاً بالألسنة، مكتوباً في المصاحف، يحفظه الألوّف وعشرات الألوّف من رجال المسلمين ونسائهم، بل من صبيانهم وفتياتهم.

لا يستطيع أحد أن يُعَيِّرَ منه آية أو يُعَدِّلَ منه كلمة أو حرفاً: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ 41 لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ تَنْزِيلًا مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 41، 42].

هذا الكتاب هو المصدر الفذ لمعرفة الحق، كما يريد الله، وكما يجب لخلقه

أن يعرفوه ويتبعوه: {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ} [الإسراء: 105]، {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} [النساء: 105]، {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ
وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} [الرعد: 1].

إن الحق - في أجمل صورته وأعمق معانيه - يتجلى في هذا الكتاب الإلهي، الذي أودع الله فيه نبأ من قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، وضمنه من جواهر الحكم، وجوامع الكلم، وروائع العبر، ودقائق المعاني، وأسرار التشريع، وحقائق الوجود، وآيات البيان، وبيّنات الهدى والفرقان، ما ينير العقول، ويشفي الصدور، ويزكي الأنفس، ويصلح الحياة، ويهدي الأفراد والجماعات إلى أقوم سبيل.

لقد أبصر الحق الناصع في هذا الكتاب، وشهد به كل ذي فطرة سليمة من الدنس، وكل ذي بصيرة برئت من العمى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46].

شهد بحقيته هذا الكتاب أولو العلم والإنصاف من أهل الكتاب، كما قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ} [الأنعام: 114]، {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [سبا: 6].

شهد بحقيته النصارى الذين حدّث الله عنهم فقال: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيزُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} 83 وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ} [المائدة: 83، 84].

بل شهد بحقيته الجن الذين استمعوه ف: {وَلَوْ أ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ 29 قَالُوا يُقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأحقاف: 29، 30].

بل شهد بحقيته المشركون أنفسهم - رغم عنادهم وكفرهم به وبمن أنزل عليه. فقالوا: إِنَّ لَهُ لِحَلَاوَةَ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةَ، وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْإِنْسِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ، وَإِنَّهُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ.

هذا القرآن حق، لأنه كلام الله الحق، وهو حق لأنه خالد باقٍ لا يزول ولا يتبدل.

وهو حق، لأنه يهدي إلى الحق المطلق، البريء من قصور العقل الإنساني، وانحراف الهوى البشري.

هو يهدي إلى الحق، لأنه يهدي إلى الله وإلى صراط مستقيم.

وهو يهدي إلى الحق، لأنه يهدي إلى الحقائق الثابتة التي تحل الغاز الوجود، وتبين للإنسان مبدأه ومصيره.

وهو يهدي إلى الحق، لأنه يهدي إلى أفضل الغايات وأقوم السبل.

وهو يهدي إلى الحق، لأنه يهدي إلى القيم الخالدة والفضائل الأصيلة، التي تستقر بها الحياة وتنظم بها المعاملة ويستقيم بها ميزان الخلق والسلوك.

وهو يهدي إلى الحق، لأنه يهدي إلى العدل فيما للإنسان على غيره، وفيما عليه لغيره، دون غلو ولا تقصير، فلا يضغط على الفرد لحساب المجتمع، ولا يطغى على المجتمع لمصلحة الفرد، ولا يظلم الروح من أجل شهوات

الجسد، ولا يعذب الجسم طلباً لأشواق الروح، فللبدن حق، وللعقل حق، وللروح حق، وللرجل حق، وللمرأة حق، وللمجتمع حق، والله قبل ذلك كله حق. وصدق الله العظيم: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: 9].

هذا الكتاب هو كلمة الله الأخيرة للبشر، فليس بعده كتاب، كما أن الرسول المنزل عليه ليس من بعده رسول. لهذا أودعه الله من الأسرار والمزايا ما يكفل له الخلود وال دوام:

(أ) أودعه الوضوح والتيسير، فهو كتاب مبين، ولهذا سماه الله نوراً وهدى، وهو ميسر للذكر، يسهل على من قرأه أن يعيه ويحفظه، ويسهل على من تلاه أو سمعه أن يفهمه، كلٌ بقدر ما آتاه الله من فهم ومعرفة. قال تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} [القمر: 17]؟.

(ب) كما أودعه الله قوة التأثير بما فيه من سر الإعجاز الإلهي، فله سلطان على العقول والقلوب، بما في أحكامه من عدل، وما في أخباره من صدق، وما في معانيه ونظمه من روعة بالغة، وما في آياته من وعد ووعد وتبشير وإنذار: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خُسَيْعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر: 21]، {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: 23].

(ج) وميزه الله بالشمول، فأودع فيه قواعد العدالة للفرد والأسرة، والمجتمع والإنسانية، وأصول الهداية لسعادة الدنيا والآخرة: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: 89].

(د) وفوق ذلك فإن الله تولى حفظه من الضياع والنسيان والتحريف فهياً له

من أسباب البقاء ما لم يهيئه لكتاب قبله، ليبقى حُجَّةَ الله على عباده ما تعاقب الليل والنهار {إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9].

قال الطالب:

ولكن كيف يمكن لكتاب واحد أن يشتمل على تبيان كل شيء وهو لا يزيد على مئات من الصفحات؟

قال الشيخ:

هذا سر الألوهية يا بني، ومع هذا لم أقل إنه اشتمل على تبيان الفروع والجزئيات والتفصيلات، فهذه قد تُرك بعضها للرسول يبينه بقوله وعمله وهُدْيِهِ، وبعضها الآخر تُرك لاجتهاد المجتهدين في ضوء النصوص والقواعد العامة وما تقتضيه المصلحة المتغيرة بتغير الأماكن والأزمان والأحوال.

إنما قلت: إنه اشتمل على أصول الهداية التي تحدد الهدف وتنير السبيل، في علاقة الإنسان بخالقه وعلاقته بالحياة وعلاقته بالآخرين. علاقته بالفرد وبالأسرة وبالمجتمع وبالحكومة وعلاقة المجتمعات ببعضها ببعض.

وحسبك أن تقرأ هذه الآيات، فستجدها مصابيح هادية تنير ظلمات كثيرة، وتحل عقد شتى: في العلاقة بالله: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 64]، {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَاتِّي قَرِيبًا أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: 186].

وفي العلاقة بالكون: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ

اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ} {الأعراف: 185}، {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} [العنكبوت: 20]، {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آدَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46]، {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الجنات: 13]، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك: 15].

وفي العلاقة بالحياة وطبيباتها: {بَيْنِي وَبَيْنَ عَادِمَ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ 31 قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادَةٍ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} {الأعراف: 31، 32}، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة: 172]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [المائدة: 87].

وفي علاقة الرجل بالمرأة: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} [البقرة: 187]، {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} [البقرة: 228]، {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [النساء: 34]، {وَمِنْ ءَايَاتِنَا أَنْ خَلَقْنَا لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [الروم: 21].

وفي علاقة الأغنياء بالفقراء: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة: 103]، {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ 24 لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [المعارج: 24]، {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَاوَنُكُمْ فِي الدِّينِ} [التوبة: 11].

وفي علاقة الحاكم بالمحكوم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا 58 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 58، 59].

وفي علاقة الأمة بغيرها من الأمم: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَنْطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60]، ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: 61].

قال الطالب لشيخه:

ما أبلغ هذه الآيات، وما أروعها، وما أجمعها لأصول العدالة والفضيلة!
ولكني أحب أن أسأل:

إذا كان القرآن هو مصدر الحق الأوحد، فما بال أهله - وأنا أعني المسلمين - قد ضلُّوا وتفرقوا وأصبحوا في مؤخرة الأمم علمًا وحضارة وتقدمًا؟ وهل يعني إتباع الحق أن يتأخر أهله عن القافلة، ويلفهم الضعف والخمول بردائه الأسود؟

قال الشيخ:

مهلاً يا بني، فإنما حلَّ بالمسلمين ما حل، لانحرافهم عن الحق الذي جاء به هذا الكتاب، وقد تجلَّى هذا الانحراف في عدة مظاهر:

أولها: أنهم أخذوا بعض هذا الكتاب وتركوا بعضه، وتلك من الرذائل التي أنكرها القرآن على بني إسرائيل حيث قال: ﴿أَفْتُونُومُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ

بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ} [البقرة: 85]. ولهذا كان من وصية الله لرسوله: {وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [المائدة: 49].

ثانيها: أنهم قلدوا دينهم رجالاً غير معصومين من الخطأ ولووا أعناق آيات الكتاب لتوافق تفكيرهم ونسوا أن الكتاب أصل يُرد إليه غيره، كما قال تعالى: {فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [النساء: 59].

ثالثها: أنهم ظنوا بركة هذا الكتاب في تزيين الجدران بآياته أو بتلاوته على الموتى أو نحو ذلك، وجعلوا أو غفلوا أن البركة إنما هي في اتباعه والعمل بتعاليمه كما قال تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأنعام: 155].

إن تعاليم القرآن يجب أن تؤخذ جملة سواء منها ما يتعلق بالفرد أم بالمجتمع أم بالدولة. وقد روى المفسرون أن بعض اليهود أسلم وأراد أن يحتفظ بشيء من تعاليم اليهودية فنزل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: 208].

ومعنى {ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً}: أي في الإسلام كله. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يقول الله تعالى أمرًا عباده المؤمنين به، المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك».

هذا الكتاب كله - أو هذا الدين بجميع شعائره وشرائعه - «وصفة طبية» متكاملة لا يجوز أخذ بعضها وإهمال بعضها، فإنها كل لا يتجزأ.

إن هذا الكتاب يمنحنا نظامًا مستقلًا للحياة، ذا صبغة خاصة ووجهة خاصة: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} [البقرة: 138]؟، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: 122]؟ {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا} [المائدة: 50]؟.

فلا يجوز أن تُدخل في هذا الجهاز «قطعًا» أجنبية دخيلة لا توائم تركيبه، ولا تلائم بقية أجزائه. إن ضررها وخطرها قد لا يظهر لأول وهلة، ولكن سرعان ما يبدو خطرها على سلامة الجهاز كله.

قال الطالب: بعد هذا البيان الجامع منك، أرجو أن تأذن لي في سؤال يهمني ويهم الكثيرين!

قال الأستاذ: سأل.

قال الطالب:

لقد ذكرت أن الله تعالى قد هيا لنا سبل الهداية للحق، فما بال أكثر الناس قد أعرضوا عنه، وضلوا عن سبيله ضلالًا بعيدًا، بل عادوه وحاربوا أهله؟ وهل لذلك من سبب نعرفه؟

قال الأستاذ:

الواقع أن الإعراض عن الحق، بل إعلان الحرب عليه واقع فعلاً، بل هو واقع من أكثرية البشر، وهو أمر مؤسف حقًا.

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة المؤلمة، التي لا تُشرف بني الإنسان أبدًا، وهي

أن أكثر الناس يكرهون الحق، مما يفضي بهم إلى سخط الله وعذاب جهنم.

قال تعالى: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ 74 لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْتَلِسُونَ 75 وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ 76 وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مُكْتَبُونَ 77 لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كُرْهُونَ} [الزخرف: 74 - 78].

أما لماذا يكره الناس الحق، فذلك يرجع في نظري إلى سببين أساسيين:

السبب الأول: هو جهل الناس بالحق. وقديماً قيل: «الناس أعداء ما جهلوا»، «ومن جهل شيئاً عاداه»، وقال القرآن: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء: 24]، {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} [يونس: 39].

والسبب الثاني: فهو اتباع الهوى. فإن الهوى إله معبود، ومن جعل إلهه هواه فهيهات أن يذعن للحق. ومن هنا قال تعالى: {فَأَحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [ص: 26]، {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ} [القصص: 50]؟

قال الفتى:

ولكن أعلام الحق لائحة وسبيله واضحة، فما الذي جعلهم يجهلونه ولا

يعرفونه؟

قال الشيخ:

إنما يأتي الجهل بالحق من جملة أمور:

1 - منها الغفلة السادرة، التي تجعل بعض الناس يعيش في الدنيا حياً كميته، وموجوداً كمفقود. معطلّ السمع والبصر والفؤاد، وهي الأدوات التي وهبه الله إياها، ليستخدمها في معرفة الحق، فبالسمع يروي علم غيره، وبالبصر يقرأ ويلاحظ ويجرب، وبالفؤاد يرتب المقدمات ويستخلص النتائج، ويصحح ما قد يخطئ فيه السمع والبصر.

لقد امتنَّ الله على الإنسان بهذه الأدوات الثلاث: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: 78].

وحذر من إهمالها واتباع الإنسان ما ليس له به علم، والسعي وراء التقليد أو الظن أو الوهم: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: 36].

ولكن هؤلاء باستغراقهم في الغفلة خربوا هذه الأدوات التي هي مفاتيح المعرفة للأولين والآخرين. فلا عجب أن يكون مصير هؤلاء كما ذكر الله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِنعَمِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: 179].

ويحكي الله عن أصحاب النار في الآخرة: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ 10 فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسَخْنَا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: 10، 11].

وفي نهى القرآن عن تقليد الرؤساء وطاعة الكبراء يعرض لنا صوراً مؤثرة ومثيرة عن الكبراء وأذنانهم يوم القيامة، وكيف يتبرأ كلا الفريقين من الآخر. وقد تكرر هذا المشهد في عدة سور من القرآن. ففي سورة البقرة: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا} [البقرة: 166].

وفي سورة الأعراف: {قَالَ ادْخُلُوا فِيَّ أُمَّمٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ لِأَوْلِيهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 38].

وفي سورة الأحزاب: {يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ 66 وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا 67 رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِغَيْرِ مَعْرِفَةٍ فَاجْعَلْ لَنَا ذُرِّيَّتًا مُطِيعَةً لِرَبِّكَ رَبَّنَا} [الأحزاب: 66 - 68].

وفي سورة سبأ: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} [سبأ: 31].

وفي سورة الصافات وسورة «ص» ذكر مثل هذا الحوار.

إنَّ أشد ما يطمس العقل البشري هو التعصب الجامد المظلم، الذي يحبس صاحبه في قمم القديم الذي كان عليه الآباء، أو الواقع الذي عليه الأكترية أو الرؤساء.

إن هذا التعصب يعمي المرء ويصمه، ويجعل عقله كأنما هو منحوت من حجارة صماء.

ألم تر كيف فعل التعصب بكفرة مكة الذين قالوا في عناد غريب: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَنْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: 32].

ولو عقل القوم وأنصفوا لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له واجعلنا من جنده، وأنصاره، ولكن تعصبهم للباطل أعماهم: {صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة: 171].

ثم انظر كيف حكى القرآن عنهم: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ آدَانِنَا وَقْرٍ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا لَهُمْ أَنْفُسًا لَهُمْ فَعَلُوا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [فصلت: 5].

قال الطالب:

لقد تبين لي الآن: لماذا يجهل الناس الحق، مع ما آتاهم الله من أدوات معرفته ووسائل الوصول إليه.

وبقى الآن أن أعرف السر في السبب الآخر، الذي يجعل الناس يعرضون عن الحق ويكرهونه، مع علمهم بأنه حق، ومع ما في اتباع الحق من خير لهم في الدنيا والآخرة.

وأرجو ألا يضيق أستاذنا بكثرة الأسئلة، فأنت الذي غرست فينا حب المعرفة والاستقصاء، والموضوع جد خطير.

قال الشيخ:

كلا ... إني منشرح الصدر بكل ما توجه من أسئلة تفتح آفاق الموضوع، وتتيح لي الرد على شبهات قد تحيك في الصدور. وقدِيمًا قال أحد العلماء وقد

سئل: فيم لذتك؟ قال: في حُجَّة تتبخر اتضاحًا، وشبهة تتضاءل افتضاحًا. أما السر في كراهية الناس للحق، فما أحسبه أمرًا غامضًا على مثلك:

إن الحق يا بني مر المذاق، كثير التكاليف، لما يلزمه غالبًا من مخالفة هوى النفس وعادات المجتمع، ونزعات الخاصة وشهوات العامة. ولهذا نجد أكثر الناس يكرهون الحق، وإن لم يكن أكثرهم يجهلونه.

وفي هذا يذكر القرآن عن مشركي مكة منكرًا ومعجبًا من موقفهم من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ 68 أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ 69 أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْتَرَهُمُ لِلْحَقِّ كِرْهُونَ 70 وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} [المؤمنون: 68 - 71].

لقد بيّن القرآن العلة الأولى في إعراضهم عن الدعوة، وما هي إلا أنه جاءهم بالحق الذي يكرهه أكثرهم. الحق الذي يسفّه أحلامهم وهو عند أنفسهم أعقل العقلاء، ويعيب آلهتهم.

ثم هذا الحق يفرض عليهم المساواة والعدل وقد تعودوا التفرقة والبغي. ويحرم عليهم الشهوات الباغية وهم فيها غارقون. فلا عجب أن ينكروا هذا الحق لأول وهلة من عرضه عليهم قبل أن يمحسوا ويتفكروا كما قال تعالى: {وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} [الأحقاف: 7].

وهناك دوافع نفسية كثيرة تدفع بأصحابها إلى مخالفة الحق على علم. منهم من يخالفه ويكرهه أنفة واستكبارًا أن يخضع لمن يعده أدنى منه منزلة أو أقل

مألاً ونفراً كمشركي مكة الذين حدّث القرآن عنهم في موقفهم من رسول الله فقال: {بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ 29 وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ 30 وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: 29 - 31].

ويريدون بالعظيم أن يكون ذا مال وجاه كالوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن مسعود الثقفي في الطائف.

ومثل هؤلاء، فرعون وملؤه الذين استكبروا أن يؤمنوا بموسى وهو من بني إسرائيل الذين كانوا في خدمتهم: {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِبْدُونَ} [المؤمنون: 47]؟

وبعضهم يعاديه بغياً وحسداً لمن ظهر الحق على يديه، كموقف اليهود من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، الذين عرفوه من أوصافه في كتبهم كما يعرفون أبناءهم. ثم أبوا أن يصدقوه: {حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} [البقرة: 109].

وبعضهم يعرض عنه انشغالاً بحظوظ نفسه، وشهوات حسه. وترف عيشه، فلم يترك له اتباع الهوى فراغاً لاتباع الحق: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [سبأ: 34].

وكل ما ذكرت من هذه الدوافع والموانع التي تصد الناس عن الحق مع تبين معالمه ودلائله لهم، تدخل تحت هذا العنوان العريض: «اتباع الهوى» سواء أكان هوى النفس أو هوى الغير. بل نستطيع أن نجعل السبب الأول داخلاً أيضاً تحت هذا العنوان، إذ الجهل بالحق غالباً ما يكون منشؤه اتباع

هوى النفس في الراحة والكسل عن طلب الحق والسعي إليه. أو اتباع هوى الآباء والرؤساء، ومسايرة الناس فيما هم عليه، دون بذل جهد لطلب الحق، أو استعمال العقل الذي وهبه الله للإنسان، قال تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا 43 أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: 43، 44].

ومن هنا حذر القرآن من - اتباع الهوى - وذم أصحابه أبلغ الذم: {الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [محمد: 16]، {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ} [الأعراف: 176].

{أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَشُورَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ} [الجاثية: 23].

قال الطالب:

لقد فهمتُ من حديثك الشيء الكثير، كنت أحسب أن هداية الناس إلى الحق أمر يسير قريب، ولكنني عرفتُ الآن أنه شيء عسير غير يسير، وأن المعوقات عنه كثيرة، منها ما ينشأ عن الجهل، ومنها ما ينشأ عن الهوى، ولكن ربما كان الأيسر على دعاة الحق وهداته أن يبدؤا بالجاهلين به، فيبينوه لهم ويحببوه إليهم.

قال الأستاذ:

هذا حسن، ولكن يجب أن تعلم يا بني أن الجاهلين صنفان:

* صنف يدري من نفسه أنه ناقص العلم بالحق. ويشعر أنه في حاجة إلى

مَنْ يَهْدِيهِ وَيَأْخُذْ بِيَدِهِ، وَجَهْلُ هَذَا الصَّنْفِ يُسَمَّى «الْجَهْلُ الْبَسِيطُ».

* وَالصَّنْفُ الثَّانِي: يَضَعُ نَفْسَهُ شَفِي صَفِ الْعَارِفِينَ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ عَنِ بَيِّنَةٍ، فَهُوَ مَتَمَسِّكٌ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ بَاطِلٍ، مَتَوَهِّمًا أَنَّهُ الْحَقُّ الصَّرِيحُ، وَجَهْلُ هَذَا الصَّنْفِ يُسَمَّى «الْجَهْلُ الْمَرْكَبُ» وَهَذَا الصَّنْفُ يَعْسُرُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَهُ بِالْحَقِّ أَوْ تَزْحِزِحَهُ عَنِ الْبَاطِلِ. وَقَدْ قَالَ حَكِيمٌ عَرَبِيٌّ:

الناس أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتبعوه.

ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فهذا نائم فأيقظوه.

ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا مسترشد فأرشدوه.

ورجل لا يدري ولا يدري أنه يدري فهذا ضال فارفضوه.

وَالْغَرِيبُ حَقًّا، أَنْ أَكْثَرَ الْجَاهِلِينَ مِنْ هَذَا الصَّنْفِ الثَّانِي، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ 11 أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ 12 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ عَامِنُوا كَمَا عَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا عَامَنَ الْأَسْفَهَاءُ 13 أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْأَسْفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة: 11 - 13].

وَقَالَ تَعَالَى: {فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ} [الأعراف: 30].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا 103 الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: 103، 104].

وَمِنْ هَذَا الصَّنْفِ - لِلْأَسَفِ - كَثِيرٌ يُعَدُّونَ فِي الدُّنْيَا مُفَكِّرِينَ وَبَاحِثِينَ وَعُلَمَاءَ وَمُؤَلِّفِينَ، أَوْ أَدْبَاءَ وَفَنَانِينَ.

قال الطالب:

إذا كان أمثال هؤلاء بعيدين عن الحق، فما بال غيرهم؟ وما السبيل إذاً للاهتداء إلى الحق.

قال الأستاذ:

إن أول خطوة في هذا السبيل أن يعرف الإنسان قدر نفسه ومنزلته في هذا الوجود. فلا يدع نفسه فريسة للغفلات والشهوات كبهيمة الأنعام، التي تُقاد فتنقاد، لا تعرف غاية ولا تهتدي سبيلاً.

كما لا يغالي بنفسه، فيرفعها فوق مكانتها، ويظن نفسه مستغنياً عن الله، الذي خلقه فسوّاه فعدله، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه.

إنّ على الإنسان أن يدع الغفلة والشهوة والاستسلام لما هو فيه، فليس هو بهيمة.

وإنّ على الإنسان أن يدع الغرور والكبرياء والعجب بما عنده من علم أو رأي فليس هو إلهاً.

وإنّ عليه أن يعلم أنه - قبل كلي شيء - مخلوق لله تعالى، غير أنه مخلوق كريم على الله، خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه، وسخر له هذا الكون، وجعله خليفة في الأرض.

فإذا عرف الإنسان قدر نفسه، دفعه ذلك إلى طلب الحق، والبحث عنه، ومحاولة الاهتداء إليه. وهذه نقطة البداية، بل سبيل الهداية.

قال الطالب:

فإننا نرى بعض الناس يطلبون الحق، ويحاولون الوصول إليه، ولكنهم لا يصلون إليه فما سر ذلك؟

قال الأستاذ:

سر ذلك يرجع إلى جملة أمور:

أولاً: إما أنهم يعتمدون على الظن في مقام لا يغني فيه إلا اليقين الجازم، وذلك كالعقائد والأصول الكلية. لا يجوز أن نعتمد على الظن، فضلاً عن الشك أو الوهم أو الافتراض الذي لا دليل عليه كالذين قال الله فيهم: {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [يونس: 36]، {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ} [النساء: 157].

ثانياً: وإما أنهم يتأثرون بأهواء النفس وعواطفها ونزواتها في أمور لا يجوز أن يحكم فيها إلا العقل والبرهان ومقررات العلم القاطعة. وإن كثيراً من الأدباء والكتّاب والمفكرين لينتهون إلى آراء في النفس والحياة والكون هي في الواقع ترجمة لعقد في نفوسهم أو رغبات مكبوتة في صدورهم، وربما كانت هذه الآراء صوراً واضحة أو مهوشة لأفكار نضحها واقع أسرتهم أو مجتمعهم عليهم، إيجاباً أو سلباً، فكانوا في الحقيقة منفعلين وهم يحسبون أنهم فاعلون؟ ومتأثرون، وهم يزعمون أنهم مؤثرون. ومن هنا قال القرآن {وإن كثيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 119].

{بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟} [الروم: 29].

{فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [ص: 26].

إنَّ اتباع الظن في مقام اليقين، واتباع الهوى الخفي في مقام الحجة والبرهان، طالما أضلا كثيرًا من الناس الذين يحسبون أنهم مهتدون، وخاصة إذا اجتمع الظن والهوى.

كما قال تعالى في عبَاد اللات والعزى ومنهاة الثالثة الأخرى: {إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ} [النجم: 23].

ومما يؤسف له أن أكثرية البشر قد سقطوا فريسة لهذا الضلال البعيد، {وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام: 116].

ثالثًا: وإما أنهم يعتمدون على عقل الإنسان في مقام لا يحسم فيه إلا وحي الله، كمعرفة أصل الوجود ومبدأ الإنسان ونهايته، ورسالته في الحياة، وغاية هذا الكون وأسراره، وأصول العدالة والفضيلة، فهذه الأمور وما إليها يعجز العقل عن إدراكها والوصول فيها إلى قرار قاطع، لأنها أعلى من مستوى إدراكه، وأوسع من مجال بحثه، وأبعد عن اختصاصه ووسائله في المعرفة، وكل ما يصل إليه فيها أخبار تحتمل الصدق والكذب، ودعاوي تقبل التسليم والرفض، وأفكار وآراء تتسع للصواب والخطأ، وآراء تناقضها آراء أخرى، مثلها أو أقوى منها أو أضعف، ولكنها على كل حال غير معصومة.

وهذا شأن أولئك الذين حاولوا أن يفسروا الوجود، أو يضعوا فلسفة شاملة للحياة والتاريخ، أو يخطوا للبشر مصيرهم كأنما هم خلق من خلقهم، هم به أعلم، وعليه أقدر، وهيئات هيئات لما يدعون.

إنّ منهم من أنكر وجود الإله، ولكنهم نصبوا أنفسهم آلهة للبشر، يتحكمون في تاريخهم ومصيرهم، يتحكمون فيهم نظرياً بما شاءوا من التأويل والتفسير، ويتحكمون فيهم عملياً بما شاءوا من التغيير والتحوير.

رابعاً: وإما أنهم لم يتحرروا بعد من العبودية الفكرية والتبعية العقلية لغيرهم، فلا يزالون يقدسون أقوالاً لذلك الفيلسوف الشهير، أو ذلك الأديب الكبير، وذلك المصلح الخطير. فهم في الواقع يستندون إلى عقول غيرهم في موضع لا يصح فيه الاعتماد إلا على عقولهم أنفسهم، وما يتبين لهم من الحق. إنهم في حقيقة الأمر عبيد مقلدون لا أحرار باحثون.

ومن هذا الصنف كثير من المثقفين عندنا. فقد هالهم ضخامة وروعة ذلك الصنم الكبير المزوق الذي صنّعه أوروبا - أعني به الحضارة المادية الحسية الصناعية. فخرّوا لهذا الصنم ساجدين، وانقادوا لسدنته صاغرين، فهم حين يقرأون عن حضارة الغرب أو فلاسفة الغرب، يقرأون بعقلية المعجب المفتون. وحين يذهبون إلى ديار الغرب ينظرون إليها بعين العاشق المشدوه.

إنّ هؤلاء وضعوا أنفسهم في موقف لا يستطيعون معه استخلاص الحق من بين الأباطيل، ولا إطراح الباطل الذي لبس لبوس الحق.

إنّ موقف هؤلاء المساكين لا يبلغ أن يكون موقف التلاميذ، فإننا نعرف كثيراً من التلاميذ يناقشون أساتذتهم بحرية وشجاعة، ويأخذون منهم ويدعون، فهل يمكننا أن نصف موقفهم إلا بأنه موقف العبيد؟ العبيد الذين ذابت شخصيتهم في إرادة سادتهم، فبهم يسمعون، وبهم يبصرون، وبهم يعقلون، إن كانوا يعقلون!!

إن بريق الحضارة المنتصرة يخطف أبصارهم، وطنين الأسماء اللامعة يدوي في أسماعهم، فلا يملكون بعد ذلك إلا أن يطأطئوا الرؤوس، ويسيروا في الركاب خاشعين.

وقد وقع في هذه الغلطة نفسها أفراد من عمالقة التفكير ممن يُعرفون بالفلاسفة في تاريخ الإسلام. فعندما ترجموا الفلسفة اليونانية راعهم هذا الإنتاج الفكري الجبار، وشدهتهم تلك الأسماء الرنانة التي أنتجت هذا التراث، فملك الإعجاب بها عليهم أنفسهم، وأفضى ذلك ببعض منهم إلى تقديس كل ما في هذه الفلسفة من آراء، وكان فيها كثير من الخرق ملتبسًا بكثير من الباطل، فلم يسمح لهم إعجابهم الشديد أن يقفوا موقف المستقبل في تفكيره، المعتد بما عنده، فينتحل ويتخير، ويزن ويرجح، ويصوّب ويخطئ، ويأخذ ويترك، ولكنهم خلطوا ما يُقبل فيه الظن، بما لا يُقبل فيه إلا اليقين، وقاسوا ما هو من شأن العقل بما ليس من شأنه، وحسبوا أن الذي انتهى إلى مقررات يقينية في الرياضيات والطبيعات لا بد أن تكون مقرراته قاطعة في الإلهيات وما وراء الطبيعة.

وكانت النتيجة أن أولوا كثيرًا من آيات القرآن، لتوافق فلسفة أرسطو في شأن الإله، أو العلة الأولى، أو المحرّك الأول كما سماه. أو توافق آراء الفلكيين اليونانيين الذين زعموا أن الأفلاك العلوية أجسام صلبة لا تقبل الخرق ولا الالتنام.

فيا ليت هؤلاء الفلاسفة يعلمون أن كثيرًا من الأفكار التي قدسوها وأولوا القرآن لأجلها قد أصبحت في عداد الخرافات وأساطير الأولين. لم يعد شكل الأرض والكون كما تصوّره، ولم تعد الأفلاك كما فهموا، وليس الكون مركبًا

من العناصر الأربعة: الماء، والتراب، والهواء، والنار، كما كانوا يظنون بل يوقنون.

إنَّ تلميذ المدارس الابتدائية اليوم يعرف عن الكون والحياة معلومات صحيحة أكثر مما كان يعرف أفلاطون وأرسطو!

قال الطالب:

فماذا يجب على الإنسان الذي يرغب الاهتداء إلى الحق أن يفعله؟

قال الأستاذ:

ذلك بيّن مما ذكرت من العوارض والآفات. أعني، أن عليه أن يحذر من تلك المضلات التي تنحرف به عن سواء الصراط، وتميل به عن طريق الحق المستقيم:

عليه أن يطرح الظنون والأوهام من تفكيره، ويطارد الأهواء والنزعات من نفسه، وأن يتحرر من التبعية والعصبيّة لأفكار سابقة لم تثبت صحتها بيقين، وأن يكون على قدر من التواضع بجنبه الغرور والعُجب، فيعرف حدود ما هو في استطاعة فكره، وما هو فوق استطاعته.

وقبل ذلك كله عليه أن يتأكد من صدق نيّته وإخلاصه في طلب الحق، وإيثاره على هوى نفسه وتقاليد قومه، وأن يتجرد مع ذلك من تأثير العقل الجمعي وإيحاءاته، وفي ذلك يقول الله مخاطباً رسوله: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتْنِي وَفُرْدَىٰ ثُمَّ تَنَفَّكِرُوا﴾** [سبأ: 46].

ومن دلائل الإخلاص في طلب الحق ألا يتحيز طالبه، فإن المخلص يقبل

الحق من أي جهة أتى، وعلى يد أي إنسان ظهر. أما المتحيز فلا يقبل الحق إلا إذا جاء من حيث يهوى، وهذا ما عابه الله على اليهود الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأنه ليس من بني إسرائيل، مع أنهم كانوا ينتظرون بعثته، ويستفتحون به على الوثنيين في الجاهلية.

قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا بِهٖ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ 89 بِنِسْمَا اسْتَرَوْا بِهٖ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ 90 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ} [البقرة: 89 - 91].

ومن دلائل الإخلاص في طلب الحق أن يقبله الإنسان ولو كان عليه لا له، بل ولو كانت نتيجته الابتلاء بالجوع والخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات.

هناك من طلب الحق، فلما عرف أنه قد يصيبه في دنياه، في ماله أو جاهه أعرض عنه. ومن أبرز الأمثلة لذلك «هرقل» إمبراطور الروم الذي أرسل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم كتابه ليُسلم فيسلم، ويكسب الخير والهدى لنفسه ولقومه، وقد استدعى أبا سفيان ومن معه من رجال قريش وهم مشركون. فسألهم أسئلة دقيقة عن محمد ونشأته وشخصيته ودعوته ومن معه ومن عليه. مما أكد له - بكل وضوح - أنه الرسول المنتظر حقاً لهداية البشرية، ولكنه لما وجد رجال الكهنوت ثائرين عليه، غلب حب ملكه على الحق الذي عرفه - وهكذا حدثنا القرآن عن بني إسرائيل الذين لا يقبلون نبوة

نبي إلا إذا جاءهم بما تهوى أنفسهم. قال تعالى: {أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ أَسْتَكْبِرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} [البقرة: 87]؟

ويقول تعالى في شأن جماعة من المنافقين: {وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ 47 وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ 48 وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ 49 أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [النور: 47 – 50].

قال الطالب لأستاذه:

وإذا عرفنا الحق وتبين لنا الرشد من الغي، فهل يكفينا هذا لتكون من أهله وحزبه كما قال سقراط قديماً: «الفضيلة: المعرفة»؟

قال الأستاذ المربي:

لا يا بني، إن المعرفة النظرية المجردة للحق لا بد منها لتكون على بصيرة، ولكنها لا تجدي ولا تجعلك من أهله إلا إذا رسخت جذورها في نفسك وكان لها الثمرات الآتية:

أولاً: أن تدعن للحق وتتبعه، فإن كثيراً من الناس عرفوا الحق، ولم ينفادوا إليه اتباعاً لهوى أو كبر أو حسد أو تعصب أعمى، كما قال الله في أخبار اليهود: {وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: 146]. وكثير ...

وقال الرسول في دعائه: «اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه».

ثانياً أن تعتر بالحق وتنتصر له: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ}

[النمل: 79].

ثالثاً: أن تدعو إليه، وتعمل على تكثير جنده، وتثبتهم عليه، ومن هنا وصف الله المؤمنين الناجين من الخسران بقوله: {وَالْعَصْرِ 1 إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ 2 إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ} [سورة العصر كاملة].

رابعاً: أن يثبت عليه ويتحمل الأذى في سبيله، ويصبر على البأساء والضراء من أجله، فإن طريق الحق مفروش بالأشواك، محفوف بالمكاره، مليء بالمعوقات وقطاع الطرق.

هذه سنة الله في الخلق، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ولهذا أوصى الله رسوله بالاعتصام بالصبر في آيات كثيرة من كتابه، فقال: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} [الروم: 60]، {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: 35]، {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يونس: 109]، {لَتَبْلُغُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران: 186].

قال الطالب:

إنه والله لعبء ثقيل!

قال الأستاذ:

ولكن جزاءه عند الله عظيم، في الدنيا والآخرة.

قال الطالب:

وأي جزاء يناله في الدنيا ما دام يعيش في معركة مستمرة مع الباطل، وما دام الباطل مدججًا بالسلاح، ومعه العدد والغدّة، والمال والرجال؟

قال الأستاذ:

إن الله يداول الأيام بين الناس، تربية لأهل الحق، وتمييزاً لهم من غيرهم، ليبتلي الله ما في صدورهم وليتمحص ما في قلوبهم. كما قال تعالى يخاطب المسلمين بعد غزوة «أحد»، وقد استشهد فيها سبعون منهم: {إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ 140 وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكُفْرِينَ} [آل عمران: 140، 141].

وقال: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [آل عمران: 179].

ولكن العاقبة دائماً لأهل الحق، ما داموا متبعين لسنة الله في الأسباب والمسببات، إن الله تعالى أقام الحياتين: الأولى، والأخرة، على الحق.

ففي هذه الحياة كتب على نفسه أن يُحق الحق، ويُبطل الباطل.

ومن تأمل التاريخ وجده قصة صراع بين الحق والباطل. ينتهي بانتصار الحق وإن طال الأمد.

وهذه قصة موسى وفرعون مثل واضح لذلك: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ 75 فَلَمَّا

جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ 76 قَالَ مُوسَى اتَّقُوا اللَّهَ لِحَقِّ لَمَّا
جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السُّحْرُونَ 77 قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ 78 وَقَالَ فِرْعَوْنُ
أَنْتَوْنِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ 79 فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ
80 فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ
الْمُفْسِدِينَ 81 وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ { [يونس: 75 - 82].

لقد ألقى السحرة حبالهم وعصيهم وأجمعوا كيدهم وزينوا باطلهم حتى
سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، وحتى أوجس في
نفسه خيفة موسى، ولكن ماذا كانت النتيجة؟! النتيجة ما قصه علينا القرآن:

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ 117 فَوَقَعَ الْحَقُّ
وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ 118 فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صُغْرَيْنَ 119 وَأَلْقَى السَّحْرَةَ
سُجْدِينَ 120 قَالُوا ءَأَمِنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ 121 رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف: 117 -
122].

وهل أنزل الله ملائحته يوم «بدر» إلا لنصرة الحق وهزيمة الباطل؟!
استمع إلى هذه الآيات: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ لَكَرَهُونَ 5 يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ
يَنْظُرُونَ 6 وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ
تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ 7 لِيُحِقَّ الْحَقَّ
وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [الأنفال: 5 - 8].

على أن صاحب الحق يكفيه جزاء في الدنيا مع يشعر به من عزة وسكينة

باتباع الحق ونُصرتَه.

قال عبد الله بن الزبير: «والله ما عزَّ ذو باطل، ولو طلع من جيبه القمر، وما ذلَّ ذو حق ولو اجتمع عليه أهل الأرض».

هذا في الدنيا ...

وفي الآخرة يقضي الله تعالى بين عباده بالحق، فيجزى كل نفس بما كسبت، ويكافئها بما عملت: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئِيَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} 69 وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} [الزمر: 69، 70].

وهناك يعترف المؤمنون والمبطلون أنهم إنما يُجَزَوْنَ بالحق وحده.

فيقول المؤمنون أهل الحق حين يدخلون الجنة ويتبوأون منازلهم: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتَّكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 43].

وأما المشركون الذين اتخذوا آلهة زعموها تشفع لهم يوم القيامة فقد تبين لهم ضلالهم، فما لهم من حميم ولا شفيع يُطاع، وإنما هنا «الله يقضي بالحق»، وفي هذا يقول القرآن: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} 74 وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [القصص: 74، 75].

هنالك يلمس الجميع الثمرة الحلوة لاتباع الحق، والثمرة المرة لاتباع

الباطل.

هنالك يوقنون أن الحق ينفع من اتبعه في الدنيا وفي الآخرة. ينفع الفرد وينفع المجتمع معاً، أما الباطل فإنه ضار بأهله في الآخرة والأولى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ 1 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ 2 ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلُهُمْ} [محمد: 1 - 3].

قال الطالب لشيخه:

لقد ذكرت لي أن الحق من مقومات الثبات والبقاء، وأن الباطل من شأنه التلاشي والفناء، ولكن ألسنا نرى في الواقع باطلاً يبقى ويسود ويستمر حيناً من الدهر، ونرى حقاً يضعف ويُغلب ينكمش ويختفي؟!!

قال الشيخ:

إن الباطل قد يظهر حيناً في غفلة الحق، ولكنه لا يدوم طويلاً، ولا يستمر على ظهوره كثيراً، فلا بد أن ينكشف ما فيه من زيف، وأن يزحف عليه الحق فيدمغه ويمحوه، كما يمحو الصبح سواد الظلام، وفي هذا يقول القرآن: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْدِفُ بِالْحَقِّ عُلْمَ الْغُيُوبِ 48 قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} [سبأ: 48، 49].

إن الباطل كالرغوة المنتفخة وكالزبد الرابي على سطح الماء، يعلو قليلاً ثم يتلاشى ويختفي ولا يبقى إلا الماء الخاص والنبع الأصيل. وهذا مثل ضربه الله في القرآن فقال: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ

يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبُطْلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} [الرعد: 17]. وهذه السُّنَّةُ الإلهية في عليّة الحق على الباطل قد أكدها القرآن الكريم في غير موضع من سوره. وتأمل معي مثل هذه الآيات: {وَيَمْحُ اللَّهُ الْبُطْلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَةٍ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الشورى: 24]. ويصوّر المعركة بين الحق والباطل، فتحس بأن الحق قذيفة تنقض على الباطل فتسحقه: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبُطْلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: 18].

وفي فتح مكة أمسك النبي صلى الله عليه وسلم برمح في يده وأهوى به على الأصنام التي طالما عبّدت من دون الله وهو يتلو قول الله: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبُطْلُ إِنَّ الْبُطْلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: 81].

قال الطالب:

وما رأيك في حضارة الغرب التي تسود العالم اليوم: أحق هي أم باطل؟

قال الشيخ:

إنّ ما فيها من الباطل أضعاف ما فيها من الحق، ومن باطلها هذا الغلو الذي جاوز الحد الوسط في كل أمر:

غلوها في تمتيع الجسد على حساب الروح، وفي تقديس العقل على حساب الوحي، وفي الحرص على متاع الدنيا على حساب الآخرة، وفي تدليل المرأة على حساب الرجل، وفي إطلاق الحرية للفرد على حساب المجتمع، وفي إيثار المنفعة على حساب الأخلاق، وفي نزعتها القومية على حساب الإنسانية.

وقبل ذلك كله في نسيانها لله تعالى، مما أنساها حقيقة نفسها، وصدق الله: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [الحشر: 19].

قال الطالب لأستاذه:

ولكن الإنسان في الغرب حطم الذرة وغزا الفضاء، وسخر الطبيعة، واكتشف كثيراً من المجهول فهلاً نرى هذا التقدم العلمي قربه إلى الحق؟

قال الأستاذ:

إنَّ الإنسان الغربي يا بني اكتشف أشياء كثيرة ولكنه لم يكتشف سر وجوده، وسخر الطبيعة ولكنه لم يسخر هواه، وحطم الذرة ولكنه لم يحطم أوثانه الفكرية والروحية. ومما أروع ما قاله أحد فلاسفة الهند لأحد مفكري الغرب، قال: لقد أحسنتم أن تحلقوا في الهواء كالطير، وأن تغوصوا في البحر كالسمك، ولكنكم لم تحسنوا أن تمشوا على الأرض كالإنسان!!

قال الفتى متعجباً:

وإذا كان الغرب هكذا إغراقاً في الباطل، فما باله يمسك بعجلة القيادة؟ ويتحكم في زمام القافلة البشرية، ويوجه ركب الحضارة أنى يشاء، ويوقد الحرب ويطفئها، والعالم رهن إشارته، وطوع هواه؟ أليس أولى بالباطل أن يندحر ويولي الأدبار؟ أليس سمي باطلاً لبطلانه وذهابه وتلاشيه؟ فلماذا بقي الغرب هذه القرون سيدياً مسيطراً؟!

قال الأستاذ الشيخ:

قلت لك يا بني: إنَّ الباطل قد يقوم في غفلة من الحق، على أن الباطل إذا

ظهر حينئذ، فإنما ذلك لشيء من الحق اختلسه فضمه في حناياه.

ألا ترى اللصوص يبقى أمرهم جميعاً ما دام معهم بصيص من الحق يتعاملون به فيما بينهم فقط، كاحترام القسم فيما بينهم، وكنمان ما تواصلوا بكتمانه، واقتسام ما سرقوه بالعدل، ومعاونة من سقط منهم ... وهكذا، حتى إذا تسرب هذا البصيص من بينهم فلا بد أن ينكشف أمرهم وينفرط عقدهم، وتقبض عليهم يد العدالة، فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، ويُساقون إلى عذاب الهون جزاءً بما كانوا يكسبون؟

إنّ لدى الغربيين بقايا من حق إلى جانب ركام هائل من الباطل، لا بد أن يدمر عليهم حضارتهم وينقل الزمام إلى غيرهم.

وقد قيل قديماً: دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة.

قال الفتى:

إننا نقرأ بين الحين والحين أقوالاً لمفكرين من الغرب نفسه ينعون على حضارتهم ماديتها المسرفة وحيوانيتها الهابطة، فهل يمكن أن يكون هؤلاء رسل هداية لقومهم؟ وهل نأمل في يوم يؤوب فيه هؤلاء الغافلون إلى فطرتهم ورشدتهم؟ وإلا فما السبيل إلى هداية الإنسانية، وإنقاذها مما تردت فيه من الباطل والغي؟

قال الشيخ:

صحيح يا بني أن بعض الغربيين قد أفاقوا من سباتهم فرأوا حضارتهم قد مسخت فطرة البشر، وحرمته سكينه النفس، ودمرت عليه خصائص الإنسانية ومن هؤلاء، شبنجلر في كتابه «تدهور الغرب»، وبرنارد شو في

مسرحيته، وتوينبي في كتب التاريخ، وبرجسون، وكولن ولسون في «سقوط الحضارة»، ولنجستون في «التربية لعالم حائر»، والكسيس كاريل في «الإنسان ذلك المجهول» وغيرهم وغيرهم ... بيّد أن هؤلاء جميعاً شخّصوا كثيراً من الداء، ولكنهم لم يهتدوا بعد إلى حقيقة الدواء.

قال الطالب: فما الدواء إذن وكيف يهتدون إليه؟

قال الأستاذ:

الدواء عندنا نحن، وليس عند غيرنا، الدواء في حضارتنا الربانية الإنسانية العالمية، حضارة الحق والخير والتوازن والعدل، التي تضع كل شيء في موضعه وتعطي كل ذي حق حقه، ولا يطغى جانب من الحياة فيها على جانب، فهي تشيد المسجد إلى جانب المصنع، وتعلي المئذنة كما تعلي المدخنة، تجمع بين الدين والعلم، وتوفق بين العقل والقلب، وتمزج بين الروح والمادة، وتصل بين الأمس واليوم والغد، وتربط بين المثال والواقع، وتقسط بين الحق والواجب، وتعديل بين الرجل والمرأة، وتوازن بين الفرد والمجتمع، وتصلح بين الغني والفقير، وتؤلف بين الشعب والحاكم، وتؤاخي بين الإنسان والإنسان

إذا اهتدت الإنسانية إلى هذه الحضارة، فقد اهتدت إلى سر السعادة وروحها. وإلا كانت جهودها هباءً، ومحاولاتها كسر اب يقِيَعَةٍ يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

لن تهتدي الإنسانية إلى الحق وهي تطلبه من فلسفات وضعيه متناقضة، ومذاهب أراضية هابطة تعالج مشكلة بخلق أخرى، وتتداوي من داء بداءٍ

جديد.

ولن تهتدي إلى الحق وهي تسلم أزمته الفكرية والروحية لأناس لا يرجون الله والدار الآخرة، همهم استغلال الغرائز وأيقاظ الشهوات.

لن تهتدي الإنسانية إلى الحق، إلا إذا طلبته من مصدره الأوحد وهو كتاب الله الخالد - القرآن - وإلا إذا تسلّم قيادتها رجال يقدسون الحق ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

ومَن يكون هؤلاء إلا المسلمون، يوم يعودون مسلمين حقاً.

المسلم هو الذي يقدس الحق، ويعيش له ويموت في سبيله.

فالحق في اعتقاد المسلم اسم من أسماء الله، ووصف من أوصاف كتابه، ونعت من نعوت رسوله، وقيمة عليا من قيم دينه.

والمسلم باعتباره فرداً، مُطالب بأن يعرف الحق ويؤمن به ويدعو إليه ويصبر على ما يلقاه في سبيله.

والمسلمون - باعتبارهم أمة - مُطالبون أن يقيموا الحق في الأرض ويتواصوا به ويهدوا إليه: {وَالْعَصْرُ 1 إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ 2 إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ} [سورة العصر كاملة].

غير أن المسلمين - وأسفاه - غافلون عن الحق الذي شرّفهم الله به وحملهم أمانة تبليغه ونصرتة، ونشر نوره في العالمين.

فكيف يهدي الناس إلى الحق من عمى عنه أو تعامى، ومن نسيه أو تناساه، وفاقد الشيء لا يعطيه؟!!

قال الطالب:

هل أفهم من كلامك أنك يائس من غلبة الحق على الباطل.

قال الشيخ:

لا ... لا ينبغي أن يتسرب إلى فؤاده اليأس: {إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا
الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: 87].

ويقيني أن الحق لا بد أن تقوم له دولة، وأن ترتفع رايته في الأرض، ولا
بد أن ينهزم الباطل ويلوذ بالفرار.

وقد بدأت بشائر انهزام الباطل في الغرب، بشائر كثيرة تبعث على الأمل
وتبدد ظلام اليأس.

إن مما يبعث على الأمل أن الاستعمار الذي أغلق كثيرًا من النوافذ التي
تهب منها نسيمات الحرية الفكرية على الشعوب، قد حمل عصاه ورحل عن
أقطار كثيرة، فأتاح فرصة للأفكار أن تتحرر، وللعقول أن تبحث.

ويبعث على الأمل أن الإلحاد أخذ يتضاءل ويخفي رأسه، ويخفت صوته،
ولم يعد له حُجَّة ولا سلطان، وكلما تقدّم العلم ازداد عدد المؤمنين بالله،
وتناقص عدد المنكرين.

ويبعث على الأمل أن كثيرًا من المفكرين المنصفين أخذوا يشكون من
طغيان المادية على الحياة، وطفقوا يبينون مثالب الحضارة المادية، وخطرها
على خصائص الإنسان وتهديدها للقيم الأصلية والمثل العليا في الحياة.

ولا بد أن يأتي اليوم الذي يزهد فيه الباطل، وتزول دولة الضلال أمام

عسكر الحق الزاحف المنتصر، هذا ما ينبئ عنه الواقع، وما تحس به القلوب النيرة، وما تقضي به سنن الله في الخلق، وما تنطق به آياته الحكيمة الصادقة: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: 53]؟

وصدق الله العظيم.

وهنا حقيقة لا بد أن نذكرها:

وهي أن الحق لا ينتصر وحده، ولكن سنة الله أن ينصر الحق، إذا كان له رجال يؤمنون به ويدعون إليه، ويتجردون له ويعيشون من أجله، ويموتون في سبيله. ولهذا قال الله لرسوله: {هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصِيرَةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: 62].

فإن كان لي من نصيحة أنصحها إليك يا بني فهي أن تعيش جندياً للحق، تحيا له وتموت عليه، تحب فيه وتبغض، وتصل وتقطع، وتسالم وتحارب.

قال الفتى:

وهل أجد في الناس من يعينني على ذلك؟

قال الشيخ:

إن سنة الله يا بني أن يبقى في الناس من يستمسكون بالحق ويدعون إليه، ولو كثر أهل الباطل، ليكونوا حجة الله على خلقه. وفي القرآن: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: 181].

وفي الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم

من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك إلى قيام الساعة»⁽³⁾.

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا تخلو الأرض من قائم لله بالحجة».

ورحم الله شوقي إذ يقول:

إن الذي خلق الحقيقة علقماً لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً

على أن جندي الحق لا يضيره أن يقف في الميدان وحده، يصارع الباطل بعده وعُدته، ويتحدى الضلال بسلطانه وجبروته، فإن عاش، عاش بالحق سعيداً، وإن مات، مات في سبيله شهيداً.

وحسبك مثلاً على ذلك من أولي العزم من الرسل شيخ المرسلين نوع سسس الذي ظل ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو قومه إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وإن لم يزد لهم دعاؤه إلا فراراً.

وأبو الأنبياء إبراهيم الذي قال لأبيه وقومه: {إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ 26 إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي} [الزخرف: 26، 27].

قال الفتى:

وما قيمة صيحة حق في صحراء مترامية من الباطل؟ أليست - كما قيل: صيحة في واد، ونفخة في رماد؟

قال الشيخ:

إن صيحة الحق يا بني لا تذهب سدى. إنها تترك أثرها في ضمير

(3) رواه مسلم.

الوجود، وإن لم تسمع لها دويًا، ولم تلمس لها أثرًا مباشرًا، وهي أن تذهب اليوم مع الريح، فغداً تذهب بالأوتاد، وهي إن ضاعت عند الناس فلن تضيع أبداً عند الله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ 24 تُوْتِي أ كُلَّهَا كُلَّ حِينٍ بَادِنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: 24، 25].

وَهَبْ أَنْ النَّاسِ كُلَّهُمْ قَدْ انْطَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ، وَخُتِمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، وَغَشِيَ الْبَاطِلُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَمْ يَعُودُوا يَسْتَجِيبُونَ لَصِيحَةِ الْحَقِّ وَلَا لِدَعْوَةِ الْخَيْرِ، فَلَا يَفْتَنَنَّ ذَلِكَ فِي عَضْدِكَ، وَلَا يَقْعُدَنَّكَ عَنْ وَاجِبِكَ. فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَى اللَّهِ الْحِسَابُ، عَلَيْكَ الدَّعْوَةُ وَعَلَى اللَّهِ الْهَدَايَةُ، عَلَيْكَ أَنْ تَبْذُرَ الْحَبَّ، وَأَنْ تَرْجُو الثَّمَارَ مِنَ الرَّبِّ. وَفِي الْقِصَّةِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْقُرْآنُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ، عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} [الأعراف: 164] معنى هذا أنه لا فائدة تُرْجَى مِنْ وَعْظِهِمْ وَقَدْ أَعْرَضُوا وَعَانَدُوا وَحَقَّتْ كَلِمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَمَاذَا قَالَ أَوْلَئِكَ؟ {قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ} [الأعراف: 164] لقد عللوا وعظهم لهؤلاء الذين لا خير فيهم بأمرين: الإعذار إلى الله بأداء الواجب، والرجاء في أن يهديهم الله ويهدي بعضهم إلى الحق.

إِنَّ الْأَمَلَ جُزْءٌ مِنَ دِينِ الْمُسْلِمِ، لِأَنَّهُ ثَمْرَةٌ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَالثِّقَةِ بِوَعْدِهِ، وَالْيَقِينِ بِمَا عِنْدَهُ.

وَهَذَا شَأْنُ الدَّاعِيْنَ إِلَى الْحَقِّ، يَحْدُوهُمْ دَائِمًا الْأَمَلُ الْحَلْوُ وَيَعْمُرُ جَوَانِحَهُمُ الرَّجَاءُ الْبَاسِمُ، وَلَا يَعْرِفُ ظِلَامَ الْيَأْسِ إِلَى صَدُورِهِمْ سَبِيلًا: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: 56].

وكلما أدلهم الباطل من حولهم ازداد إيمانهم بحاجة الناس إلى النور، وكلما أمعن الفساد في الظهور والانتشار امتلأوا يقيناً بضرورة الإصلاح، وكلما زحف تيار الكفر الصريح أو المقنع ازدادوا قدرة وإصراراً على المقاومة.

وكلما طبقت عليهم المحن الداخنة أيقنوا أنّ الفرَج قريب.

إنّ أهلك ساعات الليل سواداً هي التي تسبق الفجر، وإن أشد الأيام قسوة هي التي تسبق تباشير النصر، وما أكثر الأمثلة على ذلك، وما أكثر الأدلة!

إنّ الحق الذي أكرمنا الله به، فيه - وحده - فلاحنا وخلصنا في أولانا وأخرانا، وفلاح الإنسانية كلها معنا. وإنما تحتاج الإنسانية إلى أمة ترى فيها الحق نماذج بشرية تمشي على الأرض لا كلمات وشعارات تزحم الكتب، وتتغنى بها الألسنة والأقلام.

يوم ترى الإنسانية الحق ممثلاً في أمة تعرفه وتحبه وتحرسه وتنتشره وتدعو إليه وتضحى في سبيله. يومها ستسلم لها الزمام، وتسير خلفها طوعاً أو كرهاً. يومها يهرب الظلام، وينكمش الباطل، ويتراجع الشيطان.

{وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ 4 بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ 5
وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ 6 يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ} [الروم: 4 - 7].

تمت بحمد الله.

* * *